

تصوير الآخر الفرنسي في الخطاب ما بعد الكولونيالي الجزائري

Depicting the French Other in the Algerian Post-Colonial Discourse.

محمد مروان^{*1}، مخبر علوم اللسان بجامعة عمار التليجي بالأغواط،

المدرسة العليا للأساتذة طالب عبد الرحمان -الأغواط

m.mohamed@ens-lagh.dz, <https://orcid.org/0009-0007-2644-8822>

2024-11-22	تاريخ القبول	2024-06-05	تاريخ الاستلام
------------	--------------	------------	----------------

ملخص

ترك الاستعمار التقليدي الذي غزى أقطار العالم تصورات ونظريات عديدة مست كل المجالات وخصوصاً في الجانب الثقافي والأدبي، أهمها الفكر ما بعد الكولونيالي الذي شغلت خطاباته أغلب الدراسات النقدية الحديثة، حيث يسعى لفضح الاستعمار والوقوف ضد نظريته التعسفية والامبريالية المهيمنة. هدفنا في هذه الورقة البحثية إلى إبراز صور الفرنسي من خلال بعض النماذج الروائية الجزائرية، فكان سلبياً في أغلب صورته، وهمجياً ذوجه تعسفي قمعي سخر كل آليات التخريب والتقتيل لبسط نفوذه على الجزائر وتحقيق مراميه الاستعمارية، في حين نجد أن بعض الروائيين صوّروا هذا الآخر بأنه داعم للثورة والقضية الجزائرية، وواجه الاستعمار الظالم التعسفي الذي كان ضد القيم الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الكولونيالية؛ الآخر الفرنسي؛ استعمار؛ الرواية الجزائرية.

Abstract

Traditional colonialism, which invaded regions across the world, left behind numerous perceptions and theories that touched upon all fields, especially in the cultural and literary aspects. Among the most significant is postcolonial thought, which has dominated the discourse of most modern critical studies. It seeks to expose colonialism and stand against its arbitrary and imperialist perspective. The aim of this research is to highlight the image of the French through some Algerian novelistic examples. In most depictions, the French were portrayed negatively, as barbaric with an oppressive and tyrannical face, employing all mechanisms of destruction and killing to extend their influence over Algeria and achieve their colonial ambitions. Meanwhile, some novelists have portrayed this 'other' as supportive of the revolution and the Algerian cause, confronting the unjust and arbitrary colonialism that was against human values.

Keywords: Postcolonialism ; The French 'Other' ; Colonialism ; Algerian Novel.

* المؤلف المراسل

لقد كان للنظرة التعسفية و الأحادية الاستعمارية الفرنسية على الجزائر ردة فعل من طرف العديد من الكتاب و الروائيين الجزائريين ، فقد تحركت أعلامهم مدافعة عن المهمشين و المقموعين ومنكلاً بالاستعمار وشناعته ، فنتج عن هذا التصدي ما يسمى بالخطاب ما بعد الاستعماري أو الخطاب ما بعد الكولونيالي، ونجد الرواية في مقدمة هذه الخطابات لأنها عدة الجنس المركزي الذي ارتبط بالواقع الجزائري وصور الاستعمار في سياسته و وقمعه ضد الجزائر، فقد أفصح هذا الخطاب بعد الكولونيالي عن تساؤلات عديدة مبنية على النظرة إلى الآخر المستعمر مثل : تشكل الهوية، والصراع الحضاري بين الأنا و الآخر، التاريخ، اللغة إلخ، فكانت مقاومة ثقافة و حضارية للقضاء على الأفكار و الثقافة التي أراد المستعمر غرسها في الجزائر أو تشويه الكيان والهوية بها ، متمثلة في هذا النوع من الخطابات ، وكانت مقاومةً بدل المقاومة المسلحة العسكرية، تستند على ثقافة الآخر من أجل تفكيك وهدم منظور السيطرة و الهيمنة فيها والذي ظل مخيماً على الوعي الجمعي لمدة طويلة ، هادفةً -أي هذه المقاومة الثقافية - إلى رد اعتبار المهمش والمغيب وتحرير تاريخه المسيح و كشف همجية المستعمر المادية و الثقافية عليه . فكيف صور الروائي الجزائري الآخر الفرنسي في خطابه؟، وهل كان تصوريه للمستعمر مقتصرأ على الصورة الإيجابية أم السلبية؟

وسنحاول تحليل بعض المتون الروائية ما بعد الكولونيالية في الجزائر لمعرفة صورة هذا الآخر المستعمر فيها، والكشف عن علاقته بالأنما المستعمرة، ولكن يجب أن نخرج على بعض المفاهيم الأساسية في هذا البحث بوصفها مدخلا نظريا هاما قبل البدء في الدراسة.

النظرية ما بعد الكولونيالية

مفهوم ما بعد الكولونيالية

يشير مصطلح ما بعد الكولونيالية إلى الفترة التي أعقبت الاستعمار، وقد تداول هذا المصطلح في أواسط القرن العشرين في العديد من المجالات وخصوصا الثقافية والسياسية منها، كما أنه عبّر عن الحركة النقدية الأدبية التي ترد على الهيمنة الإمبريالية الغربية وكسر شوكتها العنصرية والاستعبادية وما خلفته من شناعة في الدول المستعمرة.

فما بعد الكولونيالية تشير تحديدا إلى ما بعد استقلال الدول المستعمرة، وهذا المصطلح رغم تعدّد استعمالاته لا يشير إلى قطيعة معرفية بين ما قبل الاستعمار و ما بعده ، بل يهتم بثقافة الاستعمار و تداعياته و إرثه الذي تركه كل هذا يعد العمود الفقري للنظرية ما بعد الكولونيالية ، فالخطاب ما بعد الكولونيالي يبدأ من وقت الاحتلال ليُعيّ ثقافة المستعمر وتوجهاته و نظرياته ويفهمها ، لكي يفككها وينتج من إعادة بنائها خطاباً مضاداً يرد فيه على النظرة العنصرية الاستعبادية للمستعمر، ويعيد الاعتبار للمغيب و المهمش و المحقّر ويحقق العدالة له بدل النظرة الدونية و الأحادية التي همشت هذه الشعوب المستعبدة و ظلمتها، فما بعد الكولونيالية غطت مجالات الثقافة المتأثرة ماضيا وحاضرا بالعملية الاستعمارية منذ بدأت حتى اليوم، وهذه التبعية أو التأثير بالمستعمر لحد الآن تدل على وجود وجه جديد للاحتلال غير القديم المألوف، فأغلب

المستعمرات ظلت خاضعة لثقافة المستعمر حتى بعد خروجه ، وخصوصا في جانب اللغة و أنظمة التدريس و التعليم وغيرها.

فما بعد الكولونيالية بشكل عام هي الاهتمام بمدى تأثير الاستعمار على الثقافات والمجتمعات المستعمرة ودراسة هذا التأثير، لأنها حقل يُعنى بكيفية فرض الهيمنة الأوروبية على ثقافات العالم الثالث والسيطرة عليها، وكيف تداعت تلك الثقافات من العالم الثالث وقاومتها، باعتبارها نظرية ودراسة لتعاملات سياسية وثقافية، وتتكون هذه العملية من ثلاث مراحل أساسية:

1. الإشارة في البداية للحالة الاجتماعية والنفسية والثقافية للفرد في دولة مستعمرة.

2. المقاومة والنضال من أجل الاستقلال الثقافي والسياسي.

3. زيادة الوعي بالتباين والتفاعل الثقافي.

فالنظرية ما بعد الكولونيالية لا يمكن أن تتأتى إلا بعد التمازج الثقافي و الفكري بين المستعمر والمستعمّر، لأن هذا التمازج يمكن المقاومة من فهم الخطابات الكولونيالية وتفكيكها في ما بعد للنهوض في وجهها وردّها، وقد جاءت الكتابة ما بعد الكولونيالية لتبرز للقارئ الهيمنة الاستعمارية مهما كان مجالها، كما سعت هذه الدراسات إلى استعادة صوت المهمشين أو التابعين فضح الهيمنة الاستعمارية وخططها في تكميم أفواه هؤلاء والتعتيم عليهم، لأن الهدف الأول للهيمنة الاستعمارية هو طمس الهوية و تكميم الأفواه المستعمرة بكل الوسائل المتاحة قمعية كانت أو إغرائية، وهذا ما سرده التاريخ الجزائري حول أساليب فرنسا في هدم الهوية الجزائرية العربية .

وما بعد الكولونيالية ليست مصطلحا أو مفهوما بعينه بقدر ما هي نظرية مؤسسة على عدة أفكار تطرح تساؤلات هامة تقوم على العلاقة بين المستعمر والمستعمّر، ونظرة الأنا المقموعة والمهمشة إلى الآخر المحتل والمتوحش الهمجي، هل بقيت هذه النظرة أم تغيرت؟ وكيف ينظر المستعمر إلى الأنا المستعمرة؟ والعديد من الإشكاليات التي حملتها هذه الخطابات ما بعد الاستعمارية.

والنظرية ما بعد الاستعمارية تشير إلى نوع آخر من التحليل ينطلق من فرضية أن الاستعمار التقليدي قد انتهى، وأن مرحلة من الهيمنة - تسمى أحيانا المرحلة الإمبريالية أو الكولونيالية كما عرّبها بعضهم - قد دلت وخالقت ظروفًا مختلفة تستدعي تحليلا من نوع معين.... فبينما يرى بعضهم انتهاء مرحلة الاستعمار التقليدي وبالتالي انتهاء الخطاب المتصل به وضرورة أن يركز البحث على ملامح المرحلة التالية و هي مرحلة ما بعد الاستعمار، يرى بعضهم الآخر أن الخطاب الاستعماري ما يزال قائما، وأن فرضية "الما بعدية" لا مبرر لها (البازغي، 2005، صفحة 158)، لأن الاستعمار لا يذهب فقط بخروج المحتل من الوطن بل تبقى آثاره بعده في العديد من المجالات وخصوصاً التي تمس الشخصية و الهوية، فالجزائري لا يزال يتعامل بالفرنسية في العديد من المجالات، فاللغة التي تدل على الثقافة كما يزعم الأغلب هي الفرنسية، وطريقة التدريس مثلا فرنسية، حتى نظام الأكل في الجزائر فرنسي... إلخ، لهذا فإن الاستعمار لا يخرج حتى يزرع بذوره التي تنبت أشجار ثقافته في تربة المستعمر، و تظل ثابتة لا تُجتث، فالاستعمار الآن ذو وجه

مختلف يختبئ بين أفرادنا و مجتمعاتنا ، ويجب علينا اكتشاف جذوره المتسللة واستئصالها بكل قوة من أراضينا وثقافتنا وفكرنا. أي أنّ الاستعمار عندما يخرج يترك بسمته أو بتعبير أحسن يربط مستعمراته بخيط رفيع قوامه زرع ثقافته داخل أوساط هذه المجتمعات.

نشأة النظرية ما بعد الكولونيالية

إنّ انقلاب الموازين في العالم و التغيرات التي اجتاحت جميع مجالات الحياة مست كذلك الأدب والفكر، و أفرزت على اتجاه جديد سمي بـ " ما بعد الحداثة "، وهي نظرية نقدية انطوت على كل الاتجاهات المناهضة للفكر الغربي القمعي، و لعل التيمة البارزة المشتركة بين هذه الاتجاهات النقدية كلها هو انطواؤها تحت مظلة الفكر ما بعد الحداثي ، وتمثلت هذه الاتجاهات أساسا في التاريخية الجديدة المادية والثقافية الماركسية الجديدة، النقد الثقافي، ما بعد الكولونيالية (ما بعد الاستعمارية) (لومبا، 2007، صفحة 244) كما ذكرت أنيا لومبا ANIA LOOMBA، إذأ فالخطاب ما بعد الكولونيالي هو من إفرازات بعد الحداثة .

وقد أنتج هذا الخطاب من طرف مثقفين وأكاديميين كثر على رأسهم الكاتب الفرنسي "فرانز فانون FRANTZ FANON " فقد أرجعت أغلب الدراسات أن له فضل السبق في هذا الميدان، فالحديث عن الدراسات ما بعد الكولونيالية يستلزم الحديث عن المبشر الأول به وهو فرانز فانون FRANTZ FANON، الذي يعد أبرز مناهض ومقاوم للفكر الإمبريالي الغربي، إذ تحتل مؤلفاته أهمية بارزة في هذه الدراسات، لكونها تحمل فكراً مناهضاً لكل أنواع الاضطهاد، فهو الذي سلط الضوء على أشكال التعسف والتعذيب الفرنسية في الجزائر.

وقد كان ضد تلك النظرة الدونية و السلطوية المتعالية التي كانت تنظر للجزائري عبداً وتقهرة و تظلمه، فقد ساند الجزائر وقضيتها وأقرّ أن ما سلب عنوة لا يسترجع إلا عنوة وهذا حق مشروع ، و تغيير المفهوم الاستعماري في العالم وسياسته الظالمة ليس مجرد صحوه عقلية أو دعوة للمساواة ، بل هو تأكيد قاطع على الحقيقة المبررة لتاريخ الاستعمار الدموي وهمجيته وعدم الإنصاف ، فهذا ما عكسه كتابه "معذبو الأرض " إضافة إلى كتابي "بشر سوداء"، فمن عناوينها نجدها تفصح عن فكره المناهضة لأشكال الاستعمار الثقافية المعرفية و العسكرية وغيرها.

والى جانب " فرانز فانون" FRANTZ FANON نجد الناقد و المفكر الأمريكي ذو الأصول الفلسطينية " إدوارد سعيد " EDWARD W. SAID الذي يعد من أبرز المنظرين لهذا الميدان ، فلا يمكن لأي باحث في مجال النقد الأدبي العالمي عموماً، والنقد ما بعد الكولونيالي خصوصاً أن ينكر أفضال الناقد الأمريكي من أصول فلسطينية (إدوارد سعيد)، عندما كتب كتاب "الاستشراق" في نهاية السبعينات من القرن الماضي، فقد فتح نقاشاً هام ومثير في مجالات الاختلاف و التنوع و اهتم بمصطلح الغيرية و تفرعاتها المختلفة ، و وضع في هذا الكتاب الأسس النظرية الأولى لما بعد الكولونيالية محاولاً من خلال هذا الكتاب تفكيك الخطابات الاستشراقية ، وأقرّ أنّ هذه الأخيرة – أي الخطابات الاستشراقية – جاء بها الغرب للسيطرة على الشرق وهدم كيانه وإحكام قبضتها عليه.

كما يوضح في كتابه أيضاً كيف فرض الأوربي هيمنته ووسع ثقافته وشدد عودها من خلال مقارنة ذاته بذات الشرق التي تعتبر دفينه وضعيفة لا جدوى منها (سعيد، 2006، صفحة 46)، فقد كشف عن علاقة وطيدة بين النظريات المعرفية والهيمنة الاستعمارية فهذه العلاقة هي التي رسخت السطوة الغربية الاستعمارية ولعبت دوراً كبيراً في تمثيل الآخر المستعمر.

كتاب "الاستشراق" يُعتبر بوابة لظهور الدراسات ما بعد الكولونيالية، حيث نجح "ادوارد سعيد" في استحضار العديد من المفاهيم التي تكشف عن تورط الثقافة الأوروبية في خدمة الإمبريالية، وتبرير تدخلها الاستعماري في أنحاء مختلفة من العالم. تجسد هذه المفاهيم من خلال خطاب استشراقي مليء بالصور النمطية حول الشرق، مما يجعلها صياغة قوية ومبتكرة في تحليلها للعلاقة بين السلطة والمعرفة، فإنّ الهيمنة والسلطوية الأوروبية لطالما تخفت وراء قناع الثقافة ونشر الوعي وذلك لهدف واحد هو خدمة الإمبريالية والاستعمار، فقد خدمت هذه الخطابات الاستعمار وهذا يظهر جلياً في الصورة المشوهة التي رسمتها هذه الاستشراقات للشرق.

ولا يمكننا تجاوز المفكر الهندي "هومي بابا" HOMI BHABHA الذي يُعدّ علماً بارزاً في دراسات ما بعد الاستعمارية، فقد ركز على الجانب الثقافي في وضعه لمفهوم الخطاب الاستعماري، وقام بتحليل العلاقة التي تربط المستعمر بالمستعمر من وجهة نظر ثقافية فكرية، فتمخضت تحاليله عن أهم مصطلح في الدراسات ما بعد الكولونيالية والذي استلهمه من دراسات أفكار "إدوارد سعيد" EDWARD W. SAID و "فرانز فانون" FRANTZ FANON، وهو مصطلح الهجنة، حيث ركز على تشكيل هوية جديدة هجينة من خلال الامتزاج بين الثقافة الغربية والثقافات الأخرى، فقد أورد هذا التصور في حديثه عن الأقليات التي تعيش في الدول الغربية، "فأنا لومبا" ترى أن استخدام "هومي بابا" HOMI BHABHA لمفهوم الهجنة أو التهجين كان أعظم تأثيراً وأكثر إثارة للجدل في الدراسات ما بعد الكولونيالية (لومبا، 2007، صفحة 180)، فمن خلال هذا المصطلح أصبحت الدراسات بعد الكولونيالية تهتم بتمازج الثقافات بين الدول المستعمرة والمستعمرة.

وهومي بابا HOMI BHABHA ركز على الهوية التي تتكون من خلال انحلال الآخر مع الذات في قالب واحد لأن أغلب المستعمرات تفصح عن هوية هجينة، غير أنّ هذه الهجنة أو التمازج لا يكون بالتساوي بين المستعمر والمستعمّر لأنّ الهيمنة الغربية (المستعمرة) تظهر جلياً على هويات الفئة المحتلة والمقموعة.

ونلخص إلى أنّ أغلب رواد هذا الاتجاه الثقافي الفكري والمتمثل في النظرية والأفكار ما بعد الكولونيالية قد اتجه أصحابه إلى هدم الخطابات الإمبريالية والسلطوية، وإعادة إنتاج خطابات منصفة تعطي المقموع والمهمش حقه وتخرجه إلى ضوء الشمس بعد أن سجن في زرايب التاريخ، وكذلك تحاول كشف تجاوزات الهيمنة الإمبريالية الكولونيالية التي تخفت لمدة وراء قناع المعرفة والتحضر.

مفهوم الآخر

إن كل ما هو خارج عن الذات ومخالف لها هو آخر، وقد وردت لفظة الآخر في معجم لسان العرب بمعنى الآخر بالفتح وهو أحد الشيين وهو اسم على أفعل والأنثى أخرى، إلا أن فيه معنى الصفة لأن أفعل من كذا لا يكون إلا في الصفة، والآخر بمعنى الغير كقولك رجل آخر وثوب آخر (منظور، 1990، صفحة 38) ، فهنا حمل الآخر معنيين الأول هو المماثلة والشبه، والثاني هو المغايرة أو ما اختلف عن الذات، حيث أن مفهومه في أغلب المعاجم اللغوية لا يخرج عن المعنى الثاني.

الآخر شيء ضروري للأنا لكي تعرف نفسها وتحدد ذاتها ومقوماتها من خلال المقارنة مع الآخر، فهو مماثل لها في الجنس لكن موازي لها في العدد من الأمور الأخرى كالإيديولوجيات والثقافة والفكر وغيرها، والأنا في تصادم دائم مع هذا الآخر ولولا هذا التصادم لما عرف الإنسان ذاته ونفسه، فيصبح الآخر هو الملازم لنا دائم مهم كان نعيش معه حياتنا بتجاربها المختلفة كالصداقة والصراع والتنافس، فهو الذي نحدد ذاتنا ونفهمها من خلاله ولا يمكننا إصلاح وتعديل أي شيء إلا بالمقارنة معه.

وقد تعددت استخدامات مصطلح الآخر في العديد من المجالات النفسية والاجتماعية والثقافية وحتى الأدبية الفنية وهذا ما أوجد صعوبة في تحديد مفهوم واضح ودقيق للآخر ، غير أن هذا المصطلح في مجمله يشير إلى ما هو مختلف عن الذات ، فمثلا في الخطاب الاستعماري يكون الآخر هو الشعوب المستعمرة، الدراسات ما بعد الكولونيالية، تشير إلى أن المفهوم الآخر تم تحديده كأولئك الذين تم تهميشهم نتيجة للخطاب الإمبريالي المهيمن، حيث تم اعتبارهم هامشين لأنهم يختلفون عن الوسط الإمبريالي الذي يعد مركزياً ، وقد أصبحوا هدفا ومثالاً للتمييز والاستشعار الدقيق من جانب الهيمنة الإمبريالية ، لأن الغرب المستعمر فرض نفسه من خلال خطابه الإمبريالي المهيمن ، وكوّن ذاته على أنها المسيطرة والمركزية في مقابل الآخر المستعمر الهامشي والدوني .

فلقد أولت الدراسات ما بعد الكولونيالية اهتماماً واسعاً بالآخر وعلاقته مع الأنا وكذلك كيف صور الأنا الآخر ومثله من خلال خطابه وسرده، ويعد إدوارد سعيد أول من اهتم بهذه الإشكالية في كتابه الاستشراق وبلور مصطلح الآخر للظهور إلى الساحة الثقافية والنقدية.

إن مصطلح الآخر يعد محور الدراسات والخطابات بعد الكولونيالية لأنها تقوم في الأساس على تفكيك خطابات الآخر الإمبريالي المستعمر وبناء خطاب جديد مضاد للهيمنة الغربية ومناهضتها، فلب الدراسات ما بعد الكولونيالية هو الوقوف في وجه الخطابات المهيمنة، وهي جاءت مقاومة له بشكل ثقافي.

فالتطور الحاصل في الساحة العالمية على جميع الأصعدة من تكنولوجيا واتصال واقتصاد وغيرها، فرض الاهتمام بالآخر والعلاقة معه لأن التطور هذا ما كان ليدخل دون الاتصال مع الآخر خصوصاً في الجانب العلمي والمعرفي وحتى الثقافي لأن تكور الثقافة ومعاييرها يقوم بالتمازج بين العديد من الثقافات والاتصال بها ، ومع ذلك لم يكن هذا الاهتمام بالآخر وليد هذا التطور

والتغير، بل امتد إلى عصر الاستعمار التقليدي واجتياح فرنسا و الإنجليز (الذان يمثلان الغرب) للبلدان المستعمرة الإفريقية و الآسيوية ، حيث كانت العلاقة بين الأنا الشرقي و الآخر الغربي مبنية على الصراع والسعي للتححر من القوى الاستعمارية من جهة و فرض الهيمنة الامبريالية و الثقافة الغربية من جهة أخرى ، وكذلك يبرز جليا في علاقة المثاقفة و التأثير و التأثير بين الطرفين.

و سنفرد هذه الدراسة إلى الاهتمام بصورة الآخر الغربي -وخصوصا فرنسا - التي أوردها الروائيون الجزائريون في أعمالهم، مركزين على الرواية من بين كل الخطابات باعتبارها الجنس المركزي الهام الذي يصور حياة الشعب وتطلعاته وكذلك يرسم ملامح الآخر المستعمر بشكل دقيق و هي البوتقة التي تنصهر فيها كل الأجناس الأدبية الأخرى ، فهي الوعاء الحامل للثقافة ووجهات النظرة المختلفة للحياة و المجتمع ، إضافة إلى انفتاح الرواية على الواقع بشكل جلي ، فقد صور الروائيون الواقع الاستعماري ومقاومته من طرف الشعب الجزائري بكل ما أتيح من وسائل، معربين عن قدرة فائق في الإبداع و التصوير الفني .

صور الآخر الفرنسي في بعض النماذج الروائية الجزائرية ما بعد الكولونيالية

منذ خروج فرنسا من الجزائر اتخذ الروائيون الجزائريون أمثال : (الحبيب السايح، طاهر وطار، وسيني الأعرج، آسيا جبار... وغيرهم) طريق الكفاح بالقلم ، ضد الاستعمار وذلك بهدم الصورة المتعالية المتغطرة ونظرته للأنا الجزائرية بأنها متخلفة و دونية لا مستوى لها ، فقد اتجه الروائي الجزائري إلى تصوير مشاكل الفرد وهمومه و اهتماماته ، وكذلك رسم حدود العلاقة بينه وبين الآخر الفرنسي المستعمر و المتغطرس ، فإن هاجس الآخر بقي ملاحقاً لفن الكتابة في الجزائر، لأن الأدب الجزائري ولد من رحم الاستعمار و معاناة الجزائر منه، فالرواية الجزائرية عبرت على الواقع الجزائري في زمن الكولونيالية، كاسرة شوكة الهيمنة الفرنسية المحتلة و ثقافتها الاجتياحية التي ظلت تسعى لترسيخ ثقافتها و إصباغ الجزائري بالصبغة الفرنسية الغربية .

قد أصبح الجيل الروائي الحالي، يقاوم الاستعمار عبر كتاباته محاولاً الوقوف ضد الغزو الثقافي الذي فرضه العدو الغربي، ففضحوا الاستعمار من خلال كشف صورته الحقيقية التي تختفي وراء قناع الحضارة و المعرفة و الإعمار لا الاستعمار ، وقد رسم الروائي الجزائري صورة القتل و التعذيب و الهمجية الفرنسية في رواياته ، لكي يثبت معاناة ذاته و هويته الجزائرية مع الطمس و الهدم الاستعماري، فالرواية الجزائرية اهتمت بالصورة الأجنبية ، واعتبرتها المحرك الأساسي للأحداث التاريخي بين الركود و التطور ، فهذه الشخصية كانت محورا هاما الرواية الجزائرية وساعدت في حيك أحداثها وتناغمها ، وكذلك لعبت دوراً بارزاً في جعلها جنسا أدبيا يحاكي الواقع ويرسمه بصورة فنية جمالية، لأن الواقع كان مقسوم بين جزائري رافض ومقاوم و أجنبي فرنسي فارض لهيمنتته .

لقد عمل روائيونا على وصف المحتل بشناعتة تارة وإنسانيته تارة أخرى في روايتهم، ووضحوا صورته التي كانت عليها تعاملاته مع الجزائريين في فترة استعمارهم لأرض الوطن، فلم تكذب أغلب الأعمال الروائية الجزائرية ما بعد الكولونيالية تخلوا من الآخر الفرنسي، فاخترنا بعض المتون الروائية التي تظهر فيها الآخر بصورة الجلية والمختلفة.

من الروايات التي رسمت صورة الآخر الفرنسي العدوانية والهمجي، الذي استغل كل الوسائل لفرض هيمنته ونفوذه في الجزائر رواية "اللاز" "لظاهر و طار"، والتي تدور أحداثها حول الثورة التحريرية وما عاناه المجاهدون والثوار لتحرير الجزائر من سطوة فرنسا، وكذلك ما حصل بعد الاستقلال من تجاوزات وتصفية حسابات.

فقد عذب الضباط والجهاز العسكري الثوار بشدة، فقد كاد سوط ستيفان ينقطع من شدة ضرب اللاز الذي مثل في الرواية الأنا الجزائرية التي عبرت عن معنى الصمود والتضحية، وستيفان هو أحد الضباط الفرنسيين الذين نفذوا أوامر التعذيب، والأعمال الشنيعة والقمعية على الجزائريين المقاومين، وسخر سلطته التعذيبية على اللاز للبوح بأسرار الثورة، يفرد هذا الحديث على لسان ستيفان: "مع من تعمل؟ هل تتكلم أم تواصل؟ (وطار، 2004، صفحة 65) التعذيب" الذي بدأ بتسليطه على اللاز مع مجموعة من الضباط الفرنسيين فقد أحكموا وثاقه فربطوه بأسلاك نحاسية، وألقوه على منضدة بها مسامير حادة وقاموا بجلده. فهنا تصوير لأبشع أنواع التعذيب التي خضع لها الثوري، هذه الصورة تفضح عدوانية المستعمر الفرنسي وكأنه يستمتع بأنغام الآهات الجزائرية تحت تأثير السوط والكهرباء، وكان الفرنسي مستعداً للتعذيب دائماً حتى في أضعف حالاته وهي حالة السكر، حيث دخل هذا الأخير (ستيفان) يدندن ويقول: "دن دن رغم أنني مستعد لجلدك في كل حين لأنك فلاق تعيس" (وطار، 2004، صفحة 80)، ونعته بالفلاق وهي كنية توحى بالاحتقار للجزائري وكأنه فلاح تَعِيس يخدم الأرض وينظف الإسطبلات الفرنسية ويرضى بالذل صامتاً، وكذلك يعكس هذا المشهد الحقد الدفين المغروس في قلب كل فرنسي اتجاه كل ثوري وما يمكنه فعله من جلد ليبوح بأسرار الثورة ويبيع وطنه للمحتل.

كما نجد أن الفرنسي ذو روح ذليلة يغمرها الخوف والهلع حتى من نظرات الجزائري المكبل والمقيد، فيصور الروائي الجنود وهم يقبضون على اللاز: "كان الموكب قد اقترب جديان يجران اللاز من ذراعيه، وثمانية يستحثونه السير بالكلمات والضرب بمؤخرات البنادق، بينما الدماء تتطاير من أنفه وجنتيه، وجبهته وشفتيه وهو يترنح تارة ويقاوم أخرى" (وطار، 2004، صفحة 13)، فهذا المشهد يثبت أن الفرنسي لا يساوي شيئاً أمام الشهامة والشجاعة الجزائرية العربية، فكيف لعدة جنود أن يكبلوا ثورياً واحداً بكل ما أتوا من عدة وعتاد، فهذا لا يمكن إلا إذا كان الثوري جزائرياً ذا مبادئ، وأهدافه قوامها أن ما سلب عنوة لا يرد إلا عنوة، وأن سلاح الجزائري الأول إيمانه بقضيته وأن النصر على الطريق فقط يحتاج صبراً وعزيمة وروح جهاد. كما أن الجندي الفرنسي هو المحتل والمستوطن، والذي يفعله في الجزائر يجعله مذلولاً وهذه صفات الظالم والمعتدي، فلا يمكن أن يتحلى بالشجاعة والجرأة التي يمتلكها الجزائري.

كما استعمل الآخر المحتل وسائل أخرى منها تسخير العملاء والخونة من أبناء الجزائر كبعطوش، فصور لنا الروائي الضابط منتهاكاً لكل المبادئ الإنسانية مسخراً بعض العملاء الجزائريين، فقد أمر بعطوش بقتل مريانة أم اللاز كما أمره بانتهاك عرض حيزية ووضع جنين في بطنها، يقول الروائي على لسان الضابط الذي يأمر بعطوش بتجريد مريانة من ثيابها وقتلها يقول: "

سارجان بعطوش أرح الوجود منها ودون تردد نفذ بعطوش الأمر ... سقطت مريانة دون أن تلفظ أي صوت... وظلت حيزية في جمود التمثال تتنفس ببطء.. سارجان بعطوش أريد أن تضع جنينا في بطن هذه المرأة، هنا أمامي هيا أسرع" (وطار، 2004، صفحة 11) ، فقد فضح الروائي بعد هذا المشهد همجية المستعمر المتمثلة في أوامر الضابط، و التي أبانت عن تخلف الأخلاق الآخريّة الاستعمارية وانتهاكها للمحارم و القتل الشنيع .

لقد ارتكب الآخر الفرنسي مذابح لا تحصى دماؤها ولا تعد ضحاياها من الجزائريين، بغية أن تبقى الجزائر فرنسية، وأن تظل الهيمنة الإمبريالية مشدودة الأركان في الجزائر حتى ولو كلف ذلك إبادة الشعب الجزائري كله، فهذا المستعمر الغاشم وحشٌ همجي لا يهمل شيء سوى تحقيق أهدافه وبسط نفوذه، ولقد اتضحت هذه الثورة جلياً في أغلب الأعمال الروائية الجزائرية في الحقبة بعد الاستعمارية.

إن الاستعمار رغم قوته وكثرت عدده وعتاده وتكور وسائله وأسلحته كان ينقصه شيء مهم وجوهري وهو الشجاعة والروح القتالية ، التي كانت تتوفر عند فرق الفلّاقة المبعثرة في الجبال الجزائرية هنا وهنا تذيب المستعمر الويل ، وتتشكل ملامح الفرنسي المنهزم والخائف من تفاصيل الصراع الحادة بين الذات الجزائرية والآخر الفرنسي التي صورها "الحبيب السايح" في روايته الشهيرة "كولونيل الزبربر" بعد أن صور النصر الذي حققته كتائب الولاية الرابعة بالجيش الفرنسي وأبانت عن روح الجزائري الانتصارية ، في مقابل الآخر الذليل والخائف من مجموعة جنود بلا تدريب؛ فقد حقق كومندو عز الدين و كتائب الولاية الرابعة نصراً فائقاً على الجيش الاستعماري في شهر أوت 1957 (السايح، 2015، صفحة 19).

هذا النصر الذي ذعر له الفرنسي وكشف عن ملامحه المرتبكة فقد " كتبت جريدة باريسية عن المعركة التي دامت ثلاثة أيام وما أسمته إفلاس أربعة جنرالات على رأسهم ماسو في كتيبة الفلّاقة، مخلفين وراءهم عشرات القتلى في جبل بوزقرة ، حيث بلغ القتال حد الالتحام، الشيء الذي لم يكن متصوراً أبداً، فيما خسائر الفلّاقة مختلة تناسب قياساً إلى عدة الجيش الفرنسي وعتاده دربة عساكره المدفوع بهم في الميدان، متسائلة كيف يستطيع قادة هم أصلاً "أنديجان" لا تكوين لهم أن يخططوا لأن يكون الاشتباك متقارباً بين الطرفين حتى يحول ذلك دون تدخل الطيران ومدفعية الميدان ! أفهي بداية لنقر النواقيس" (السايح، 2015، صفحة 67) ، كانت فعلاً بداية دق النواقيس ، ومن هذا المقطع الروائي نكتشف الآخر الفرنسي المرتبك في مقابل الأنا الجزائري المنتصر والذي حقق فوزاً ساحقاً أرعب العدو وأبان عن جبنه، فيلاحظ القارئ من خلال هذا التصوير الفني للحدث الفوز السحيق للفلّاقة الذي ينبئ بالاستقلال التام ،فهذه الصورة قيدت الآخر بسلاسل الفشل والخوف وأن انهزمه الكلي قريب ،وأن علوه في الأرض مضى و سقوطه حلّ ، فحقيقة الغرب أنهم ذو روح مخذولة تظهر فقط بمجرد أن تلحقه هزيمة في معركة أو اثنتين .

كما أن الآخر الفرنسي كان منقسماً بين مستسلم ومعاند خائف من أن تأتي أحد الحرائر لكي تشج رأسه بفأس تنكيلاً له وإذلالاً محاولةً إثلاج صدره بالثأر للوطن من ما قام به المحتل من مجازر، وهذا ما جاء رده جون ماري أحد ضباط فرنسا خائفاً أن تأتي أحد الحرائر وتقسم رأسه

بعضها أو حجر، وهذا التصريح محمل بالذعر والخوف واليقين بالهزيمة، فقد صور الروائي هذا المشهد للكشف عن روح الآخر الضعيفة التي تختبئ وراء الرشاش والمدافع وتحتمي تحت قنابل الطائرات.

كما صور الحبيب السايح هذا المستعمر في حالته الحقيقية فهو آلة للقتل والتعذيب والإكراه والإذلال، ووجه العنصرية الأوضح، فقد شغل آلة القمع بعد هذه المعركة وبث خطاباته السامة والمبيدة عبر أصوات المذيع، وهذا ككل مرة وخصوصاً بعد إلحاق الجيش الثوري به الخسائر، بث عبر المذيع هذا الخطاب : " أنتم الذين تنشرون السلم في الجزائر، جزائركم الفرنسية استعملوا كل وسيلة، كل سلاح للقضاء على المتمردين قطاع الطرق لا تترددوا تجاههم هم ومن يؤويهم، فأحياناً تفرض الحرب منطقها من أجل الجزائر الفرنسية تدمرون العدو ومحيطه و مجاله الحيوي... أتلفوا، مقابل كل عمود تلغراف مقطوع ، خمسين شجرة زيتون أو تين أو لوز ، وكل دوار تواطأ مع الفلاقة وجب دكه، الجزائر فرنسية، تعظم فرنسا الأم" (السايح، 2015، صفحة 81) ، فقد رسم الروائي ملامح الآخر الفرنسي الذي يستعمل الإبادة كحل للرد على خسائره في المعارك وتخفيفاً له عن ذعره وخوفه ، كما أن هذا الآخر يحاول التأكيد على أن الجزائر قطعة فرنسية تأكيداً يوحى باعتراف مضمير مفاده أن الجزائر ستبقى مستقلة عربية أصيلة ، وأن هذا الفرنسي فوق أرض غريبة عليه حاول بكل شيء لكي يصبغه بالأزرق والأحمر والأبيض ولكن روح الوطن عند فرق الفلاقة ولحمة عامة الشعب حال دون ذلك .

فقد كان الفرنسي مستعلياً ومتسلطاً يحاول بسط نفوذه وهيمنته بكل وسيلة أتاحت له، ومن خلال ما وجدناه في أغلب الروايات الجزائرية بعد الكولونيالية تبين أن الآخر الفرنسي كان آلة للتعذيب والقمع والتقتيل، وكان أبشع صور العنصرية محاولاً طمس كل ما هو عربي جزائري وهدم كل بناء إسلامي.

غير أن هذا الآخر لم يكن دائماً كما سبق ذكره فقد عكست بعض الروايات صوراً سلمية وإيجابية للآخر الغربي، الذي كان أيضاً بمثابة الصديق والسند للجزائر وقضيتها مؤمناً بها ومحباً لشعبها ، فرواية " أنا وحايميم " للروائي الحبيب السايح، تعكس صورة ولامح إنسانية قيمة تبين على أن الفرد رغم عرقه وأصله قد يتبنى آراء ضد انتماؤه ، فحايميم ذو الأصول الفرنسية اليهودية لم يكن يوماً فرنسياً وكان متودداً محباً للجزائريين و سند حقيقي لأرسلان القائد الثوري ، يقول حاييميم : "كما تعلم أنني لم أكن يوماً فرنسياً، لا في السلوك ولا في الروح" (السايح، رواية أنا وحايميم ، 2018، صفحة 96)، هذا الاعتراف من الآخر الذي تملص من عرقه المستعمر الذي استعبد الشعب لسنوات وكان مثلاً للظلم والاستعباد ، يبين إنسانية الآخر أحياناً وتعاطفه مع الحقيقة والحق الذي رفض المستعمر الاعتراف به .

قاوم حاييميم مع الثورة رامزاً للصداقة والوفاء والإخلاص وقدم الكثير من التضحيات للشعب الجزائري، وساهم في شفاء الكثير من المرضى والجرحى ومد الثوار بالأدوية والمستلزمات الطبية نظراً لكونه صيدلياً، ورغم هذا كان يأمل لحمل السلاح والقتال في الجبال جنباً لجنب مع صديقه

أرسلان، فاعترف له قائلاً : تعرف يا أرسلان كل يوم أزداد شعوراً بأن مكاني يجب أن يكون إلى جانبك أحمل السلاح مثلك من أجل شعب يستحق الحياة " (السايح، رواية أنا و حاييم ، 2018، صفحة 188). دافع حاييم على القضية التي آمن بها ودعم الثورة بكل ما يملك من أدوية كالبندسلين والأسبيرين وغيرها من اللوازم الطبية، كل هذا دون خوف من اكتشافه، فحاييم عبر عن الغربي الداعم للثورة والمناهض لفرنسا، وهذا لأنه نشأ جزائرياً وترعرع هكذا فأصبح ذو طباع أصيلة وإنسانية منقطعة النظير.

لكن اليهودي في نظر الجزائريين عامة يبقى ممقوتاً وأصوله الفرنسية حالت دون تقبله ، فبعد الاستقلال واختيار أرسلان لحاييم كمستشار له طالب الشعب بترحيله بحجة أنه فرنسي " فهذا اليهودي كان مثله مثل الأقدام السوداء يحمل الجنسية الفرنسية" (السايح، رواية أنا و حاييم ، 2018، صفحة 225) ، أي أن الفرنسي في نظرهم يبقى غربياً إمبريالياً محتلاً، وقاتلاً مجرماً ومعدباً ، فجاء دور أرسلان بكشف الحقيقة ودافع عن صديقه حاييم أمام الشعب ، واعترف بوطنيته ودعمه للثورة وهو يعرف مدى حبه للجزائر وتمسكه بثورتها وقضيته .

ويظهر الآخر الفرنسي في صورة من التعايش السلمي وتمازج الحضاري مع الأنا الجزائرية وهذا ما رسمته بعض الخطابات الروائية البعد كولونيالية، فقد حاول بعض الروائيين تصوير الفرنسي مدافعاً عن بعض أعلام الجزائر ساعياً إلى الحل السلمي والحضاري بين الطرفين، وعلى رأس هؤلاء الروائيين نجد "واسيني الأعرج" وروايته "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" ، وحديثه عن حياة الأمير عبد القادر وما عاشه في إقامته الجبرية بأمبواز.

إن القارئ المتمتع لرواية "كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد" يشاهد وقع خطى مونسينيور ديبوش، قس الجزائر الكبير، وهو يركض باستماته بين غرفة الشعب بباريس وبيته للدفاع عن الأمير السجين بأمبواز، حيث أن هذا الأخير أبرز عن وفائه للأمير، ولم ينس العلاقة القوية التي جمعتهم في فترتي مقاومة الأمير للاحتلال وفترة أسره في أمبواز، فدافع عنه واستعمل كل الوسائل لفك الأمير من أسره وألف رسالة يُرافع فيه على إطلاق سراح الأمير عبد القادر وبعث بها إلى لويس نابليون معنونة بـ "عبد القادر في قصر أمبواز" (الأعرج، 2008، صفحة 19) .

قد دافع الآخر الفرنسي والمتمثل في القس المسيحي ديبوش – وفرنسا هي الاحتلال الشنيع للجزائر – على أمير وقائد المقاومة الجزائرية المسلم الذي يمثل الذات الجزائرية المقاومة ، وهذا ما يؤكد أن الرواية تعكس صورة من صور تمازج الحضارات والأديان بين الأنا والآخر ، وأن التسامح هو صفة مغروسة في الإنسان مهما كان عرقه ودينه ، وأن التعايش و السلم كان له حظ من العلاقة بين المستعمر الفرنسي والجزائر ، فقد عكس لنا واسيني لنا صورة عميقة من صور التعايش السلمي رغم قساوة الاحتلال الفرنسي وصمود المقاومة الجزائرية ، كما أن الأمير يظهر بصورة القائد المثالي الذي يخلده التاريخ العالمي وليس الجزائري فقط لعكسه صورة من صور الجلم والعفو من خلال قبوله لتبادل الأسرى مع القس ديبوش بعد أن بعث هذا الأخير برسالة للأمير يطلب منه فيها فك قيد الأسرى المحتجزين عنده ، وافق الأمير عبد القادر مع بعث رسالة بنفس

الطلب للقس "فقام الأمير بإطلاق سراحهم وهو مدرك أن مثل هذا الفعل الصادر عنهم سيكتب في التاريخ بالمقابل توجه الأمير بطلب إلى القس في الإفراج عن السجناء " (خطاب، 2016).
صور واسيني الأعرج الآخر الفرنسي والمتمثل في القس الفرنسي الكبير ديبوش على أنه مسالم ومدافع عن القضية الجزائرية وكذلك لم ينكر الصداقة بينه وبين الأمير، فقد حملت هذه الصورة ملامح حضارية حول الآخر الفرنسي وكشفت عن وجهه المسالم والمتسامح ودلت على أن الإنسانية موجودة في الآخر.

خاتمة

وفي الأخير نخلص إلى أن الخطاب بعد الكولونيالي جاء مناهضاً ومقاوماً للفكر الإمبريالي الغربي، الذي استخدم كل خططه وخطاباته لفرض سلطته، وهمش الشرق واعتبره دونياً مقموعاً لا فائدة منه، فكان هدف ما بعد الكولونيالية هو الوقوف في وجه هذا الاستعمار ذو الوجه الجديد.
أمّ الخطاب ما بعد الكولونيالي الجزائري -والمتمثل في الرواية خصوصاً- قد حمل صورا مختلفة عن الآخر الفرنسي، الذي كان في غالبه آلة للقتل والدمار والتهميش والسبب الأول في طمس الهوية العربية والجزائرية هادفاً من وراء ذلك إلى بسط نفوذه وسيطرته وتأكيد مقولته : الجزائر جزء من فرنسا ، كذلك كان ذو روح ذليلة خائفة من الجزائري المكبل بالمعوم ، فكانت فرنسا صورة للهيمنة والاستعباد حاولت تعقيم كل ما يبين ذلك متخفية وراء قناع نشر السلم والأمن ونشر الحضارة الغربية الراقية في مقابل الشرق المتخلف ، ولم يكن الآخر سلبياً دائماً فقد ساعد الكثير من الفرنسيين والأجانب الثورة ، ودعموا الثوار وتمسكوا بالقضية الجزائرية وعرفوا طريق الحق واقفين في وجه أصلهم الفرنسي الشنيع والهمجي . ورغم كل هذا فالأنا الجزائرية لم تستلم وقاومت إلى آخر رمق لنيل التحرر والاستقلال وهذا ما كان بالفعل.

قائمة المراجع

1. ابن منظور، (1990)، لسان العرب، المجلد الأول، ط1 ، دار صادر بيروت، لبنان.
2. الحبيب السائح، (2018)، رواية أنا وحاييم، ط1 ، دار ميم للنشر، الجزائر.
3. الحبيب السائح، (2015)، كولونيل الزبربر، ط1 دار الساقى. بيروت لبنان.
4. الطاهر وطار، (2004)، رواية اللاز، دار ميم للنشر، الجزائر.
5. ينظر: إدوارد سعيد (2014)، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، ط1 رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
6. أنيا لوميا، (2007)، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار. تر: محمد عبد الغني علوم، ط1، دارا لحوار للطباعة والنشر والتوزيع، (سوريا).
7. طانية خطاب، (2016)، جدلية التاريخي والمتخيل في رواية الأمير لواسيني الأعرج، مجلة تاريخ العلوم، ع4، جامعة زيان عاشور -الجلفة-الجزائر، ص150-155.
8. واسيني الأعرج، (2008)، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب - بيروت، لبنان.